تراث مصر الفنى والمعمارى

للأستاذ محرم كمال

الامين المساعد بدار الآثار المصرية

obeikandl.com

obeikandl.com

ان اللذة المتصلة بدراسة الفن المصري القديم آتية عن طريق توغله في القدم . ولا عجب فاننا نرى فيه المحاولات الاولى لتمثيل ما بلغ فيما بعد ، وفي بعض البلاد الاخرى ، درجة عظيمة من الكمال والاتقان . ويمكننا أن نرى فيه النواة الاولى لشيء كثير ، درج به قوم ، يقدرون الشعور ويشعرون بالجمال ، في طريق التمدن والتحسين . فمصر ، منذ العصور الاولى ، قد تركت أثراً ظاهراً من حيث فني الزخرفة والعمارة وغيرهما في الاقوام الآخرين الذين كانوا على درجة من الرقي أقل من درجتهم ، او الذين بدأوا ينفضون عنهم غبار البربرية والتوحش . وأن النقوش المتعارفة من أزهار اللوتس ورسوم أبي الهول وغير ذلك من الحيوانات الخرافية التي كانت ترسم على الحزف الاغريقي وعلى الجدران ، شأنها في ذلك شأن الفهود وغيرها من الطيور والحيوانات التي كانت ترسم على الاواني وغيرها من الادوات ، يظهر ان لها صلة بالخيال المصري القديم ، أو بعبارة أوضح وأصح أنها مأخوذة عنهُ ومستعارة منهُ

لقد كانت عادة الناس ، كما هي الآن ، أن يستعيروا فنونهم وصناعاتهم من غيرهم ممن وصلوا الى درجة من الرقي والحضارة تفوق درجتهم ، وعلى ذلك فقد كانت الامة المتفوقة على غيرها في الفن هي التي تقود باقي الامم . وعلى الرغم من أن بعض هذه الامم قد أدخل تغييراً على ما استعارهُ من فن من الخارج لكي يكسبهُ طابعاً خاصًّا به الا أن الفكرة الاصلية يمكننا دائماً ان نتتبعها وأن نتعرفها وأن نرجعها الى المصدر الذي أخذت عنهُ

ولقد استمرت مصر مدة كبيرة الامة السائدة غيرها . ولقد ادى اختلاطها بغيرها من الامم ، سواء أكان ذلك الاختلاط للتجارة أو في الحرب ، إلى أن انتشر الذوق المصري ، ذوق اعظم أمة متمدينة في ذلك العهد في بلاد عديدة ، فها هو رخام ومرمر نينوى الذي يرجع عهده الى عصر سنحاريب ينطبع عليه رسم الشمس ذات الجناحين وغير ذلك من الرموز المصرية المعروفة التي أسست عليها عناصر فن الزخرفة الاشوري

وخلاصة القول أنهُ بينما كانت اليونان تغط في نومها كانت مصر تحمل علم الفنون ومصباح المعرفة تنير بقبسه البلاد المجاورة . بل بينما كانت اليونان في مهدها كان ذكر مصر ، من حيث عظمتها وبهائها ، ثروتها وقوتها ، قد طار فعم البلدان ، واعترف لها الجميع بالتفوق ، بل بمنصب الاستاذية في الحكمة والمدنية . فلا غرابة اذن ، والحالة هذه ، في أن أخذ الأغريق عنهم كثيراً من الاشكال المصرية . صحيح ان ذوق هؤلاء القوم المطبوعين الفني هو على درجة كبيرة من الجلال والروعة ، اولئك القوم — ونعني بهم الأغريق — الذين سرعان ما ارتقوا بالفن إلى درجة من الابداع لم يصل اليها مصري ولا غير مصري من قبل ، ولكن لمن الفضل في ذلك ؟

الفضل للمصري بلا نزاع . فاذا اردنا أن نتعرف نواة الفن والعمارة الاولى فيجب علينا ان نبحث عنها ، ونبحث عنها في وادي النيل

***

الآن وقد انتهينا من هذه المقدمة يجدر بنا ان ننتقل الى ذكر اكتشاف غيّر وجه التاريخ وزاد في رخاء العالم وتقدمه ، اعني اكتشاف المصريين للنحاس وما ترتب على ذلك من صناعة الاسلحة والادوات التي لم يكن الفن ليرقى الاّ بواسطة استعمالها في مختلف شؤونه ومظاهره

فحوالي عام ٤٠٠٠ ق . م على اقل تقدير خرج مصري فضرب خيامه وأوقد ناراً فاذا بالنار تلتهب ، واذا به يجد في اليوم التالي مكانها معدناً يتوهج بانعكاس أشعة الشمس عن سطحه البرّاق. أثار الامر عجبه وسروره فكرر العملية فاذا به يحصل على نفس المعدن وإذا به يصنع منهُ الحلى اولاً ثم يتدرج فيصنع منهُ نصل مديته لكي تحل محل مدية الظرّان التي كان يضعها في حزامه

وفي لحظة واحدة انتقل العالم من حال الى حال ، فقد كان هذا المصري المتجول واقفاً على باب عصر جديد ، عصر المعادن . وكانت هذه القطعة الصغيرة من النحاس اللماع التي التقطها من رماد النار بشيراً برؤية بهجة ، بحلم جميل تصطخب فيه معامل اوربا وامريكا بآلاف الآلات ، وتمتلىء فيه الطرق الحديدية بملايين القاطرات . فكل مظاهر حضارة العالم الحديث وما تعنيه لنا لم تكن لتظهر في الوجود لولا هذه القطعة الصغيرة من المعدن ، التي حملها المصري الجوال في يده لاول مرة في ذلك اليوم العظيم منذ آلاف السنين

فمصر باكتشافها معدن النحاس أحدثت حدثاً كبيراً ظهر أثره في آسيا واوربا على السواء . اما في مصر نفسها فقد بدأ ارسال الحملات الى الحدود لجلب النحاس والخشب وغيرهما من المواد اللازمة للصناعات . فمنذ عصر الاسرة الاولى ابتدأ المصريون في استغلال مناجم شبه جزيرة سينا لاستخراج النحاس الخام وفي الالف الثالثة قبل المسيح كانت اساطيل مصر تتاجر في البلاد الاجنبية ، فتستجلب خشب الارز من لبنان في الشمال وكانت البعثات ترسل لجلب المر والراتينج والخشب والذهب من بلاد بنت في الجنوب ويذهب المؤرخ ماير Meyer الى اكثر من ذلك فيقول أن فلسطين والساحل الفينيقي كانا في عصر الدولة القديمة مستعمرات مصرية

ومما لا شك فيه ان اختلاط الاجانب بالمصريين قد أحدث أثراً كبيراً ، ليس في المصريين فحسب ، وانما على الاخص فيمن اختلط بهم من الاجانب . فان اهالي القسم الشمالي من سورية تعلموا استعمال النحاس دون شك من أثر هذا الاختلاط ولا ريب في ان معرفة هذا الاستعمال قد انتشرت بعد ذلك سريعاً ، شرقاً في بلاد ما بين النهرين ، وشمالاً في آسيا الصغرى ، ثم ان هؤلاء الاسيويين أدخلوا استعماله في اوربا — ولم يكن هذا هو الطريق الوحيد لانتقال فنون

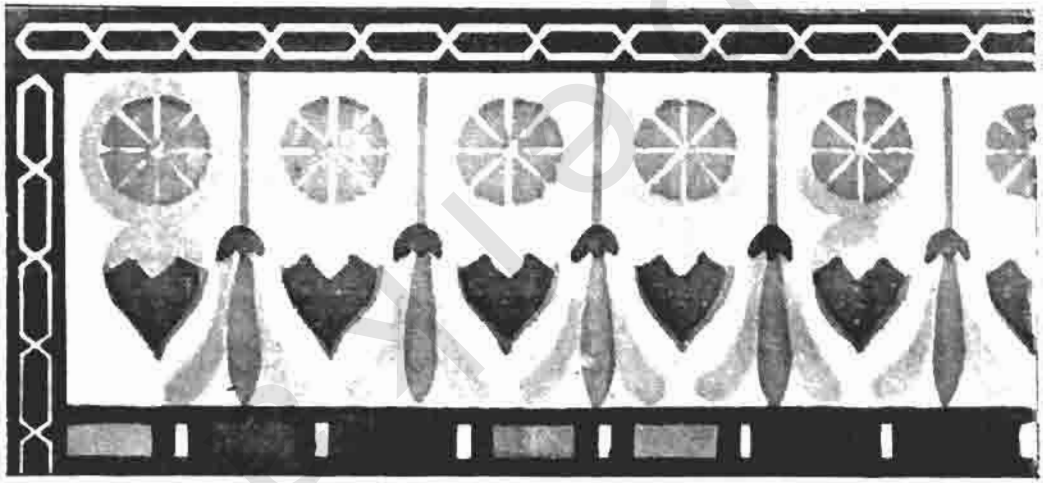

صورة رقم ١ (ا) — شريط يمثل الوريدات او الزهيرات الصغيرة المستديرة

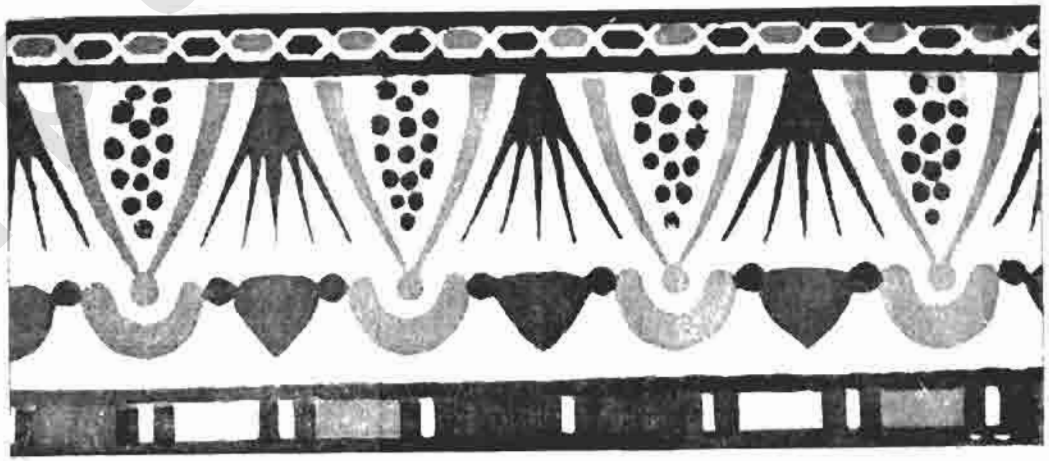

صورة رقم ١ (ب) شريط يمثل زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود

صورة رقم ٤ — (ا)

صورة رقم ٤ — (ب)

(ص ٨١)

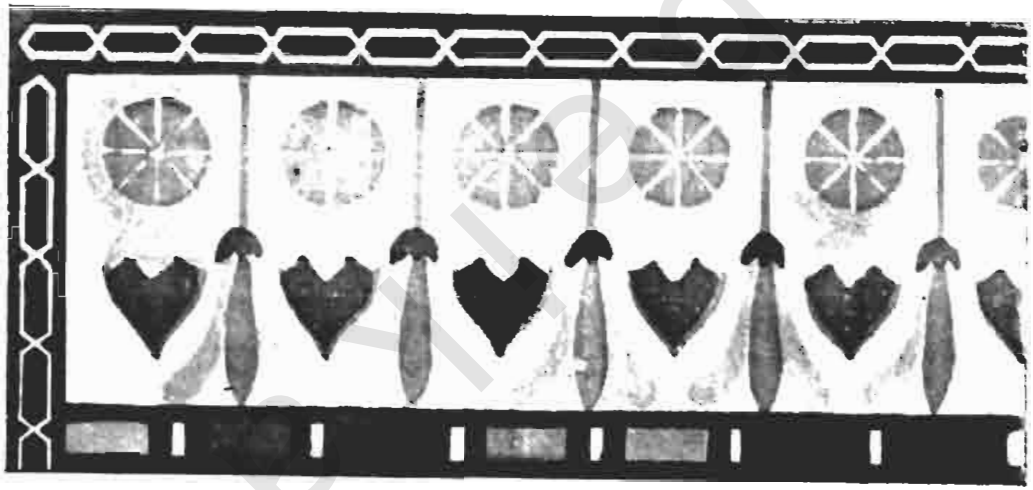

صورة رقم ١ (ا) - شريط يمثل الوريدات او الزهيرات الصغيرة المستديرة

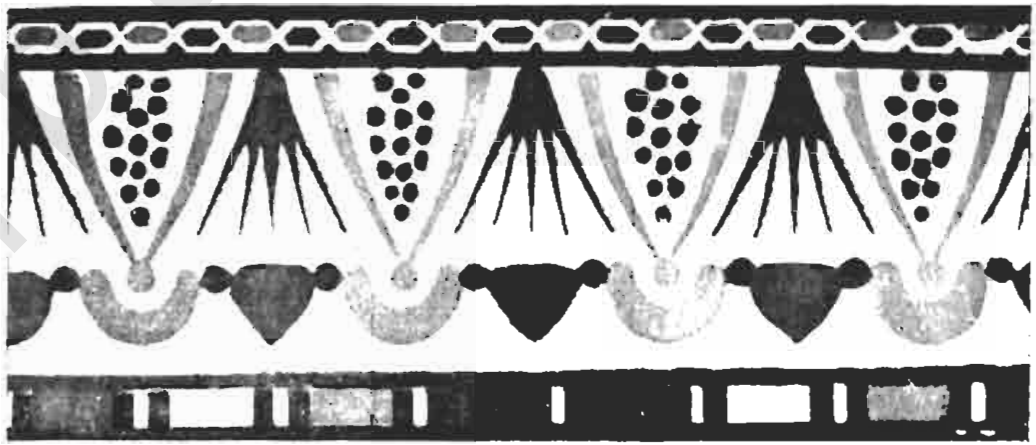

صورة رقم ١ (ب) شريط يمثل زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود

صورة رقم ٤ — (ا)

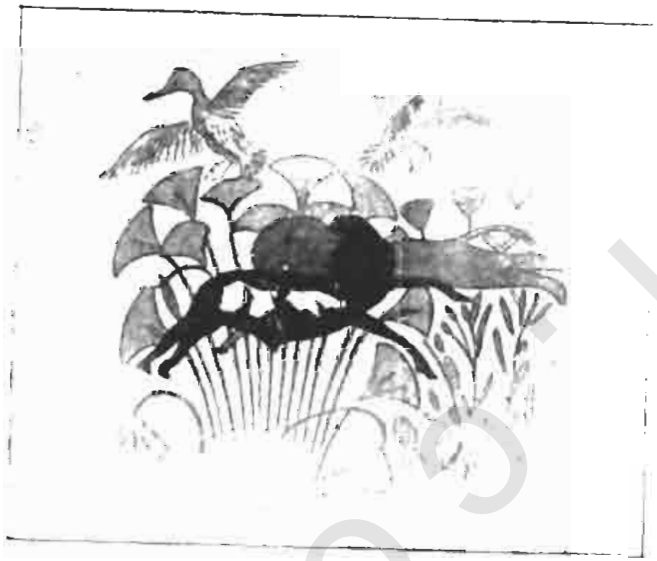

صورة رقم ٤ — (ب)

(ص ٨١)

قدماء المصريين وصناعاتهم الى العالم الغربي إذ ان هناك ساحل افريقية الشمالي وهو الذي قد تكون انتقلت منهُ الحضارة ايضاً الى كريت وبلاد الاغريق وصقلية وغيرها من الجزر ثم الى سردينيا

ونحن لا ندَّعي هنا ان حضارة اوربا كلها مأخوذة من مصر ، وانما نقول ان مصر في ذلك الوقت كان مثلها مثل العضو الاكبر في عائلة يأخذ عنهُ باقي افراد العائلة الكثير من عاداتهم وأخلاقهم ، فلما انتقلت مصر من العصر الحجري الى عصر المعادن يترتب على ذلك تقدمهم السريع في مدارج الحضارة ، فكان لمهارتهم في مختلف الصناعات والفنون أثر كبير تناقله العالم من جار الى جار فرفع مستواهم هم ايضاً . وليس أدل على ذلك من ان اهالي جنوب ايطاليا بعد ان كانوا يدفنون موتاهم في حفر يهيلون عليها التراب ترقوا فحفروا مقابرهم في الصخور او اقاموها من الأحجار . فهذا الترقي الذي هو صورة طبق الاصل من طرق قدماء المصريين في دفن موتاهم في العصر الواقع بين الاسرتين الرابعة والسادسة لا يترك مجالاً للشك في انهُ مقتبس عن المصريين القدماء

نحن نعلم انه منذ عصر الأسرة الثالثة بدأت المباني العظيمة من الحجر في مصر ، فاذا وصلنا الى الاسرة الرابعة وجدنا خوفو وخفرع ومنقرع يقيمون أهرامهم الهائلة من كتل عظيمة من الأحجار ، هي ومعابدهم الجنازية المجاورة لها . لذا فانهُ من المفهوم أن تحاول الامم الاخرى التي كانت تنظر لمصر كمهد للوحي والارشاد أن تقلد مباني المصريين الهائلة ، دون أن تكون لديهم المهارة والمقدرة الكافية لاتقانها ، ودون ان يفهموها بتاتاً في بعض الاحيان . وأظن أن القراء الآن قد أصبحوا مستعدين ومهيئين لسماع تفصيلات هذا التقليد وهذه الاستعارة أو بعبارة أخرى تفصيل ما أعطتهُ مصر للعالم أجمع في فني الزخرفة والعمارة

فمن حيث الزخرفة لا نكون مغالين إذا قلنا أن العالم مدين في زخارفه المصريين . فهناك زخارف عديدة اقتبسها الاشوريون والفرس من مصر ثم انتقلت منهما الى الاغريق ثم الى الرومان ثم انتشرت بعد ذلك في جميع انحاء اوربا . وليس في وسعنا أن نحيط هنا بجميع أطراف الموضوع وانما نكتفي بايراد بعض الأمثلة ، على سبيل المثال لا على سبيل الحصر .

فمثلاً زهرة اللوتس المصرية انتقلت الى كثير من الشعوب الاخرى وظهرت في فنونهم في أشكال مختلفة ، فقدت في بعضها مشابهتها للطبيعة وأصبحت رسماً هندسيًّا بعيداً عن محاكاة الطبيعة . وهذا الأمر نفسه ، أعني به التقليد دون فهم ، يحمل في جوانبهِ الدليل الكافي على الاقتباس والاستعارة

فالرسمان اللذان نقدمهما هنا أولهما يبين زهرة اللوتس في الزخارف المصرية . وهنا أرجو ملاحظة زهرة اللوتس في وضع مقلوب ثم ورقة العنب والعنقود في الشريط السفلي (انظر الصورة رقم ١ — ب) كما أرجو ملاحظة الوريدات أو الزهيرات الصغيرة المستديرة في الشريط العلوي (صورة رقم ١ — ا)

اما الرسم الثاني (صورة رقم ٢) فانهُ يرينا زهرة اللوتس بعينها كما نقلها الفينيقيون وأهالي جزيرة كريت «وهذا في الصورة العليا (ا) » أما في الصورة اليمنى (ب) فنراها بعد أن انتقلت الى الاشوريين ، نرى الزهرة بشكلها المصري تماماً كما نرى ايضاً الوريدات الصغيرة المستديرة التي سبق رؤيتها في الشكل المصري ، ثم نرى في الصورة اليسرى (جـ) كيف تطورت زهرة اللوتس عند الفرس فأصبحت شبيهة بالزنبق ، وهذا الشكل نفسه شكل مصري آخر لزهرة اللوتس ظهر في فن تل العمارنة على الخصوص . اما الوريدات المستديرة فهي ظاهرة في هذه الصورة ايضاً وهي تدل على انتقالها من مصر الى هذه البلاد بعينها التي أعطتها بدورها الى اوربا

(ا)

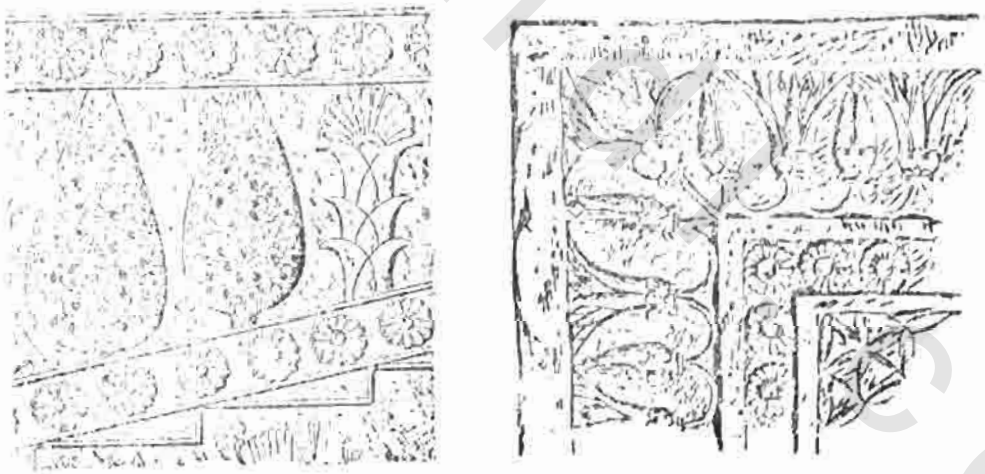

(ب) (صورة رقم ٢) (جـ)

ثم هناك ايضاً الخطوط المنحنية او المنحنيات في الزخرفة كما نجدها في سقف مقبرة نفر حوتب فهذه ايضاً قلدها اليونان تقليداً هندسيًا أعمى لم يفهموا فيه دقائق هذه الزخرفة المصرية فظهرت غريبة كما نجدها في حلية صدر من مسينا

وهذا كله يكفي للدلالة على أن زخارف الفن المسيني (الاغريقي) هي بنفسها زخارف الفن المصري القديم ، وان التغيير الذي أدخل عليها فبدَّلها من الشكل الطبيعي الى الشكل الرمزي

والهندسي كله حدث من جانب الفن المسيني وهذا يوصلنا حتماً الى النتيجة الآتيه : ، وهي ان الفن المسيني هو الذي استعار هذه الزخارف والرسوم من الفن المصري ، وانها لم تنشأ مستقلة قائمة بنفسها في بلاد الاغريق

لنترك زهرة اللوتس الآن والوريدات المستديرة والمنحنيات أو الموجات وننتقل الى شكل زخرفي آخر نجده مرسوماً على ابواب المعابد وغيرها من المباني الفرعونية أعني قرص الشمس الممتد منهُ أجنحة على الجانبين . فهذا الرسم الزخرفي الذي كان يمثل في الاصل عند المصريين الههم الذي على شكل صقر وهو اله الشمس مرفرفا بأجنحته عند ما يطير في السماء «صورة رقم ٣ (ا) » نقلهُ الحيثيون (اعني أهالي آسيا الصغرى) ومنهم انتقل الى اشور بشكله المصري في رسم على الحجر الاسود اقامهُ ملك اشوري بقصره على نهر دجلة حيث يرى قرص الشمس ذو الاجنحة

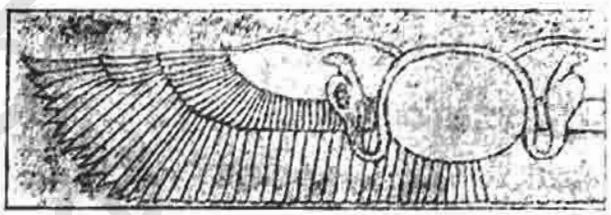

صورة رقم ٣ (ا)

صورة رقم ٣ (ب)

يرفرف امام ملك اشور الذي وقف يتقبل فروض الطاعة من ثلاثة من اليهود ، ونجده بشكل متغير معدل في رسوم أخرى نرى فيها قرص الشمس وقد رسموا فيهِ صورة الههم اشور ، اله الحرب الذي وحدوه بالشمس ورسموهُ وهو يطلق سهامه ، يحيط بهِ جناحان كالجناحين اللذين يحيطان بقرص الشمس المصري« صورة رقم ٣ (ب) » . ولم يقتصر الأمر على هذا فحسب ، بل ان هذا الرسم الزخرفي قد انتقل ايضاً الى الفرس حيث نجده في الرسوم التي عملها دارا الاول على صخور بهستون ، وذهب الى أبعد من ذلك فظهر في بلاد المكسيك

فاذا أجهدنا البحث والاستقصاء عن قرص الشمس بعد أن تتبعنا تطوره الى امريكا عدنا بسلام الى مصر ومسينا نعقد بينهما الموازنة (صورة رقم ٤) فنجد خنجراً مسينيًّا « الرسم (ا)» على مقبضه رسم يمثل فهداً يجري في اثر احد الطيور وقد أمسك بواحد منها بين الاعشاب وسيقان البردي النابتة في ارض مستنقعة . فهذا الرسم لهُ نظير ، بل اذا اردنا الدقة قلنا لهُ اصل في النقوش المصرية«انظر الشكل رقم ٤(ب)» . هذا الاصل هو قطعة من ارضية قصر تل

العمارنة نجد فيها رسم فهد يصارع ثوراً بين سيقان البردي والطيور ترفرف من حولها

فالمقابلة بين هذين الرسمين ، ولا سيما بين القوائم الخلفية للفهد في كلا الرسمين وهو يقفز جارياً وراء غنيمته بشكل امتدت فيه هاتان القائمتان الخلفيتان بشكل مستقيم الى الخلف ، تقول تلك المقابلة تمضي بنا لا شك في آخر الأمر الى اليقين بما بين الفنين من صلة ، نعني صلة تقليد الفن المسيني للفن المصري القديم تقليداً عظيماً . ورب شخص يتساءل بعد هذا فيقول : لم أتكلم عن فن الزخرفة والرسم هذا فأورد عنه الأمثلة دون ان اتحدث عن الفنون الصناعية ؟ فهذا اعتراض وجيه اخاف إن انا اهملته ان يظن البعض ان المصريين القدماء لم يقدموا للعالم شيئاً في هذا الفن

والواقع ان المصريين القدماء قد قدموا الشيء الكثير وهاهو المثال عليه : لدينا آنية مصرية «صورة رقم ٥ (ا)» وجد رسمها في مقبرة رخمارع في طيبة ، فهذه الآنية نفسها «رقم ٥ (ا)» نجدها مقلدة في آنيتين ذهبيتين عثر عليهما في مسينا احداها (هي رقم ٥ ب) تتفق في الشكل مع الآنية المصرية وعليها المستطيلات العمودية الزخرفية التي تشاهد على الجزء الاسفل من الاناء المصري ، وفي الاناء المسيني الآخر صورة رقم ٥ (ج) نجد نفس الوريدات المستديرة التي في القسم الاعلى من الاناء المصري . اما غطاء الاناء المصري الذي عمل على شكل رأس حيوان من المعدن فيذكرنا برأس ثور من الفضة عثر عليه في مسينا ايضاً ، ربما كان هو ايضاً غطاء لاناء

وليس هذا هو الاناء الوحيد المشابه لآنية مسينية بل ان هناك اواني مسينية كثيرة تشبه عدداً كبيراً من الاواني المرسومة على جدران هذه المقبرة في الشكل والزخرفة

(صورة رقم ٦)

والآن فلنذكر مثالاً آخر (صورة رقم ٦) لاوانٍ وفنانٍ صنعت من الزجاج الملون ومن المرمر ، أصلها مصري (كالذي في اقصى اليسار) ثم انتقلت بعد ذلك الى بلاد بابل (وهو الاناء الذي في الوسط) والى ايطاليا القديمة (وهو الذي الى اليمين) ثم انتشرت بعد ذلك بين امم حوض البحر الابيض المتوسط حيث اصبحت هي الشكل المتداول استعماله لوضع العطور والطيوب وغيرها . ففي هذا المثال الذي تكلم عنه نجد ان الاواني المقلدة في بابل وايطاليا القديمة هي في مطابقة شكلها وزخرفتها تمام المطابقة للاواني والفناني المصرية

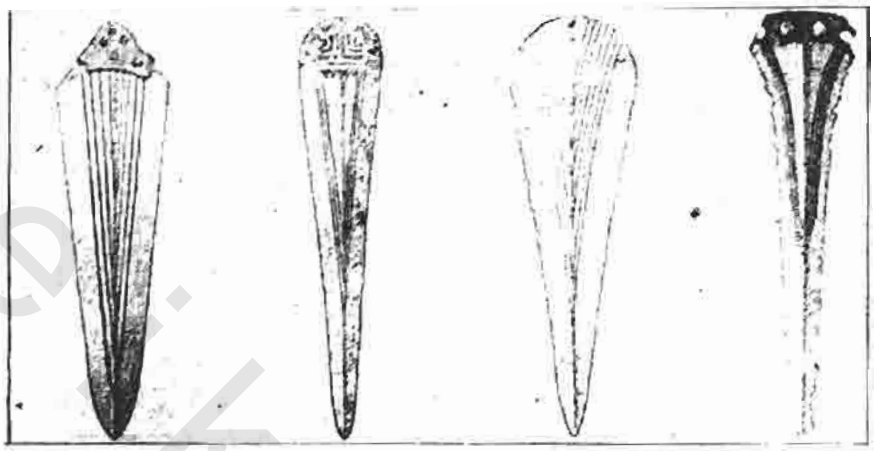

صورة رقم ٨

صورة رقم ١٠

obeikan.com

دار الكتب المصرية
قسم

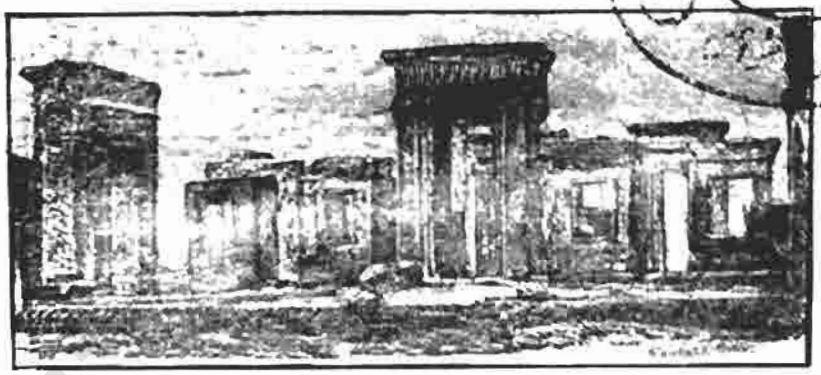

صورة رقم ١٨ — (ب)

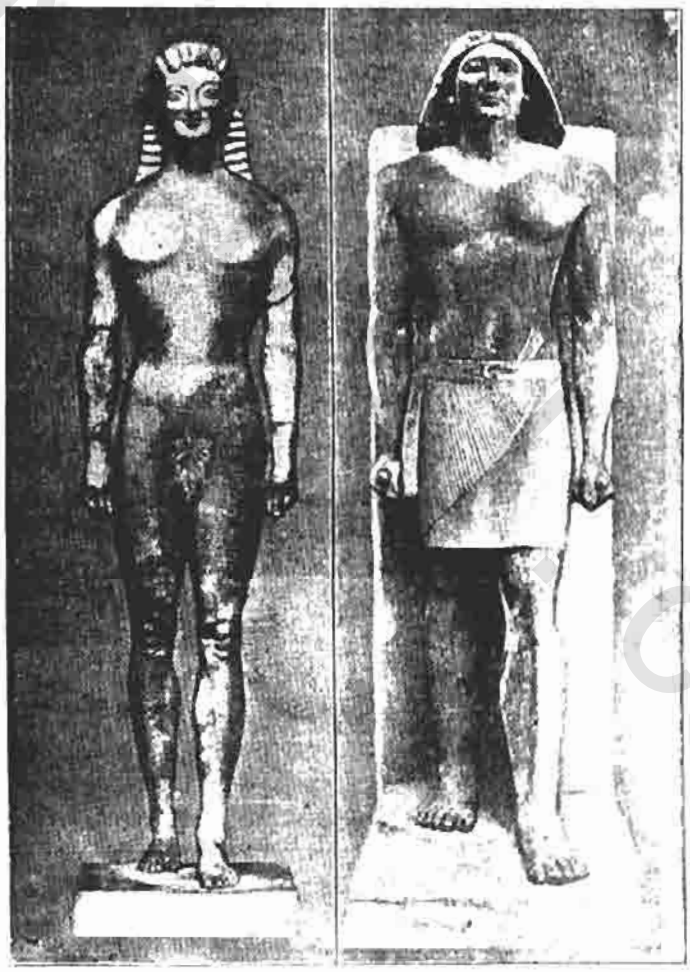

صورة رقم ١٩

وليس هذا هو كل ما في الامر بل إن لدينا أواني من الفضة والبرونز كان الفينيقيون يصنعونها في صور وصيدان (صيدا) ويزخرفونها بأشكال مصرية تمثل موضوعات مصرية كما يتضح لنا ذلك في آنية من الفضة محلاة بالزينة المصرية (صورة رقم ٧) يرى فيها (في الدائرة الوسطى الداخلية) ملك مصري يظلله قرص الشمس ذو الاجنحة وهو يرفع دبوسه باحدى يديه ليهوى به على رؤوس الاسرى الراكعين أمامه وهو (اي الملك) يمسكهم من شعورهم باليد الاخرى

بل ان هناك ما هو اكثر من ذلك . فالمجموعة الظاهرة بالصورة (رقم ٨) مكونة من اربعة نصال من النحاس والبرونز فقدت مقابضها فهذه الاسلحة ترينا كيف انتقل الشكل المصري من مصر (اقصى اليسار) الى إيطاليا (يليه جهة اليسار) ثم الى جبال چورا (يليه الى اليمين) ثم الى دانمارك والبلاد السكندنافية (اقصى اليمين) وهي من الوضوح بحيث يمكن المرء من اول نظرة الحكم بمقدار تأثير الفن المصري في ذلك

ونحن لا نضيف الى الكلام الصامت الذي تنطق به هذه الصورة سوى ان السيوف التي ظهرت في اوربا الغربية بعد ذلك بزمن انما هي الا خناجر مصرية قديمة قد زادوا سلاحها طولا

والآن لنتجه بأفكارنا إلى حضارة اخرى اعني بها حضارة جزر بحر ايجه . فالجزيرة التي كانت حلقة اتصال بين هذا البحر من الشمال وبين مصر من الجنوب كانت جزيرة كريت التي قامت حضارتها متأثرة كل التأثر بالنفوذ المصري وذلك بين عام ٣٠٠٠ ـ ٢٠٠٠ ق . م . فحوالي عام ٣٠٠٠ ق . م ظهر في كريت النحاس (منقولا عن مصر) وتبعه البرونز . وبدأ اهالي الجزيرة خطواتهم في طريق التقدم فنقلوا عن المصريين حيلهم استعمال العجلة لصنع الفخار ، والافران المقفلة (التي يبلغ طولها طول الانسان) . فأمكنهم بذلك ان يصنعوا الاواني والجرار من الطين المحروق وتدرجوا فقلدوا الأواني المصرية المصنوعة من الاحجار بعد ان اكتسبوا من المصريين طرق ثقبها ونحتها فصنعوا الجرار والاواني والاقداح وغير ذلك بأشكال جميلة والصورة (رقم ٩) توضح ما نقول . فالأواني الحجرية التي الى اليسار مصرية صنعت في

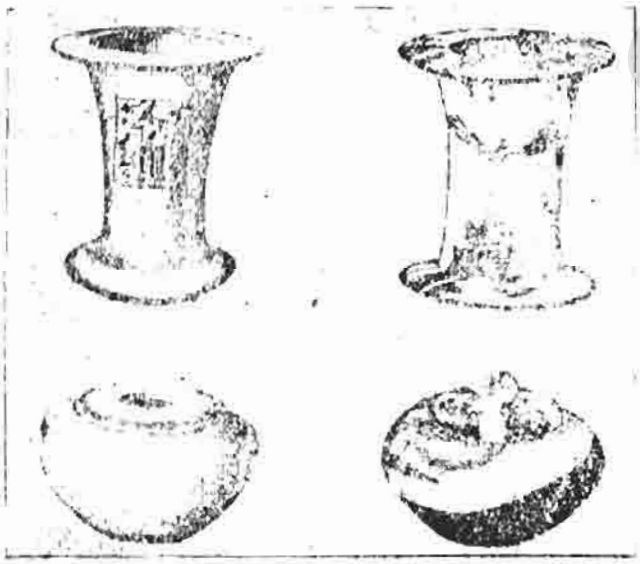

صورة رقم ٩

مصر . فنحن اذا قارنّاها بالاواني الكريتية اي التي صنعت ووجدت في كريت (وهي التي إلى اليمين) لوجدنا ان الصانع الكريتي قد نقل اشكال الاواني المصرية الشائع استعمالها في الجزء الاخير من عصر بناة الاهرام (حوالي ٢٧٠٠ — ٢٦٠٠ ق.م)

والآن لننتقل الى صناعة اخرى هي صناعة الفسيفساء او بعبارة أخرى ذلك الفن الذي يقوم على وضع قطع صغيرة من الاحجار المغطاة بالميناء أو قطع الزجاج بعضها الى جانب بعض لتكوين اشكالا ورسوماً . فهذا الفن هو مصري قديم في الاصل اخذه الاغريق الاسكندرية صناعة فرقّوه وساروا به شوطاً بعيداً فحذقوه واستعملوه في عمل أرضيات بديعة الشكل واقبسه عنهم الكثير من الامم الاخرى

والصورة رقم ١٠ تبين ان الاغريق لم يكتفوا بنقل فكرة هذه الصناعة فحسب ، بل انهم قد نقلوا الرسوم ايضاً . فالى اليمين نرى مثالا جميلا من الفن الاسكندري لصناعة الفسيفساء يظهر فيه قط يلتهم طائراً بفمه ومن حوله طيور اخرى . فهذا الرسم منقول بنصه عن الرسم المصري الظاهر الى الشمال وفيه نرى نفس القط وهو يلتهم الطائر ونفس ارجله الامامية والخلفية طائران آخران . فالمطابقة هنا تامة بحيث تعطينا برهاناً جليّاً على تأثير الفن المصري القديم من حيث صناعة الفسيفساء على ما ظهر من فن بعد ذلك

(صورة رقم ١١)

ننتقل الآن الى اشور فنضع تحت الانظار قطعة من العاج (صورة رقم ١١) وجدت في قصر آشوري تمثل ابا الهول بشكله المصري ناشراً أجنحته . فهذه القطعة العاجيّة وامثالها كانت ترصع أثاث القصور كالمقاعد وغيرها ، التي كان يقوم بعملها صنّاع فنيون كان يستخدمهم ملوك اشور . فهؤلاء الصناع كانوا يستخدمون دائماً اشكالا ورموزا مصرية بعد ان يمزجوها برموز أشورية . ويجدر بنا ان نذكر هنا ان ابا الهول ذا الاجنحة وجد في الاصل في الفن المصري ثم انتقل من مصر الى الفينيقيين والحيثيين بسوريا . ومن هناك الى بلاد أشور حيث ظل يتطور تدريجاً حتى أصبح بشكل ثور ذي أجنحة كان يحلى الواجهة الامامية لقصور ملوك أشور

وفضلا عن ان أشور كانت تعتمد في فنها وصناعتها على ما تقتبسه من مصر بدليل ما نقله الصناع الفينيقيون من اشكال الاثاث وما عليه من حلي وزخارف مأخوذة كلها عن الفن المصري القديم كما رأينا ، فان هناك صناعات اخرى نقلوها ايضاً عن مصر ، نذكر منها على سبيل المثال

صناعة الزخرفة بالمينا حيث كانت تنشر طبقة من الزجاج المتعدد الالوان على قوالب من الطوب تحلى بها جدران المنازل والقصور . فهذه الصناعة المصرية انتقلت الى آسيا ولعبت دوراً كبيراً في تزيين قصور ملوك أشور وبابل بأزهى الالوان كما يرى ذلك على آجر محلى بالمينا مرسوم عليه أسود ، هو جزء من جدار قصر « نبوخذنصر »

والآن ما ذا نزيد على ذلك فيما يختص بالفنون الصناعية ؟ لاشيء سوى كلمة بسيطة عن صورة (رقم ١٢) نرى فيها الى اليمين (الشكل ا —) مشطاً مصريًّا (رقم كتالوج المتحف المصري ٤٤٣٣٤) وجد بصقارة مصنوعاً من الخشب والعظم ، نرى في القسم الاوسط (المفرغ) منهُ شكل أسد والى اليسار (الشكل — ب —) نرى مشطاً فينيقيًّا من العاج بشكل المشط المصرى تماماً يطابقهُ حتى في القسم الاوسط منهُ حيث نجد رسم الاسد ايضاً بطريقة التفريغ . فأمثال هذه الامشاط والادوات ظاهر فيها تأثير مصر بشكل واضح لايترك مجالاً للشك ، وهي وان كانت قد صنعت في صور وصيدون (صيدا) وأمثالها من المدن الآن الفينيقيين قد نشروها في بلاد حوض البحر الابيض المتوسط حتى وصلت غرباً الى اسبانيا حيث وجدت امثال هذه الامشاط في مقابر هناك

صورة رقم ١٢ (ا)

صورة رقم ١٢ (ب)

الآن ننتقل الى النقطة التالية وهي : ما الذي قدمتهُ مصر للعالم في فن العمارة والبناء ؟

نبدأ مبحثنا من عاصمة البلاد : مصر القاهرة

فالى جانب ابي الهول يقوم معبد بني من الجرانيت نطلق عليه الآن معبد ابي الهول . فهذا المعبد أقامهُ الملك خفرع ليكون معبداً جنازيًّا لعبادته ، وليس هذا هو الذي يعنينا إنما الذي يعنينا بل ويهمنا هو ما اتخذ في هذا المعبد من وسائل انارته ، وبخاصة انارة قاعة الاعمدة

فقاعة الاعمدة في هذا المعبد (انظر صورة رقم ١٣ (ا) الشكل الايسر) ينفذ اليها الضوء من نوافذ ضيقة قليلة الارتفاع في سقف الجزئين الجانبين من القاعة ، وهما الجزءان اللذان يقلان في الارتفاع قليلاً عن القسم الاوسط حيث وضعت هذه الكوات لينفذ منها الضوء (مشار اليها في الرسم بحرف ا)

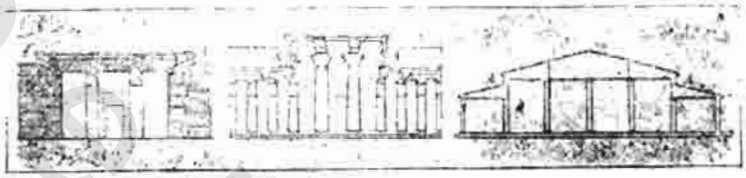

صورة رقم ١٣ (ا)

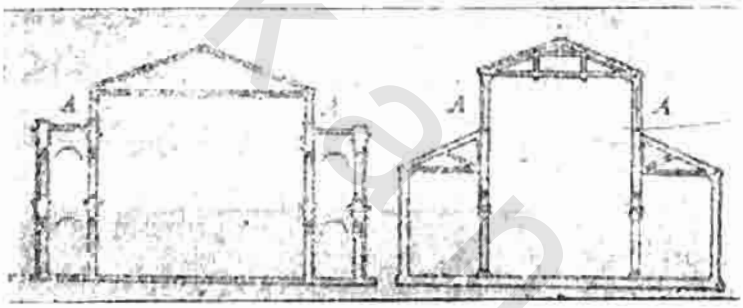

صورة رقم ١٣ (ب)

مضت مئات السنين فتدرجت هذه النوافذ وتدرجنا معها فتركنا الدولة القديمة وسرنا اشواطاً حتى بلغنا معبد الكرنك بالاقصر حيث نقف الآن فيه خاشعين امام جلال قاعة اعمدته الكبرى، فاذا أجلنا الطرف فيها (وهي ظاهرة هنا في الشكل الاوسط من الصورة العليا رقم « ا ») وجدنا القسم الاوسط يعلو بأعمدته الاثنى عشر (المرتبة في صفين) عن الجناحين او القسمين الجانبين فنشأ عن ذلك فرق بين علو السقفين او ان شئت دقة التعبير ، بين علو سقف القسم الاوسط وسقفي الجناحين ، وهنا لا نستطيع مغالبة التساؤل عما قصدوه من ايجاد هذا الفرق . السر في ذلك بسيط ، فقد قصدوا بايجاد هذا الفرق أن يضعوا فيه قطاعاً من البلاط مشقوق فيها نوافذ طولية عمودية تسمح بدخول الضوء الى داخل المكان فهذه النوافذ الطولية التي تطورت فلم تعد ضيقة قليلة الارتفاع كما رأينا في معبد ابي الهول ، وانما نجدها مرتفعة عالية ، انتقلت الى اليونان ثم الى روما كما نرى ذلك في باقي الاشكال ثم صارت بعد ذلك مظهراً متميزاً من مظاهر الكنائس المسيحية الضخمة في اوربا في الشكل المسمى الآن بالـ Basilica

الى هنا أجد القراء يهمسون في اذني همساً يزداد قوة يطلبون مني شيئاً يخلو من التعقيد شيئاً يخلو من اجبارهم معي على كد الفهم ودقة التتبع ، فلهم عليّ حق الامر ، وعليّ واجب الطاعة

رأيتم معي تلك الاعمدة الهائلة الضخمة التي كانت تملأ الابهاء في معابد مصر الشامخة التي ما زالت تقوم عظيمة على ضفاف النيل ، وفهمتم معي ضمناً ان تلك الاعمدة وفكرتها قد تناولتهما

يد التقليد في الامم المختلفة حتى وصلنا الى بلاد الاغريق ، وهناك اتخذت الاعمدة اسماً اطلق عليها هو الـ Doric حيث نجده في أقدم معبد وجد ببلاد الاغريق أعني معبد (هيرا) بالاوليمبيا

فما هو هذا العمود « الدوريك » ؟

هو أقدم وأول عمود استعمله الاغريق في مبانيهم يتكوّن سطحه من موجات طولية او أضلاع محفورة في جذع العمود . فهذا العمود يماثل تماماً الاعمدة التي وجدت في مقابر بني حسن التي يرجع تاريخها الى حوالي ٢٠٠٠ سنة ق.م كما وجدت اعمدة مصرية بهذا الشكل في سقارة وجدها فرث ويرجع تاريخها الى الاسرة الثالثة اي انها قد ظهرت قبل فدياس بنحو خمسة وعشرين قرناً

وهنا تنهز الفرصة فنعرض على القراء شكلا واحداً جمعنا فيه رسمي كل من العمود « الدوريك » الاغريقي الى اليمين (صورة رقم ١٤) والاصل المصري الذي نقل عنه الذي يعرف بالـ (Proto-Doric) الى اليسار والذي وجد في مقابر بني حسن

(صورة رقم ١٤)

ننتقل الآن الى طراز آخر من الاعمدة هو الطراز الذي يطلق عليه اسم Ionic فهو وان كان يشبه الـ Doric السابق شرحه الا انه أرفع منه ويمتاز عنه بوجود قاعدة له وتاج ذي شكل ممتاز . فتاج هذا العمود يرجع في شكله الى اصل مصري (كما يرى بأعلى العمود المصري في الشكل رقم ١٥ الى اقصى اليسار) ثم انتقل الى بابل كما نرى ذلك في رسم على البناء من جدران قاعة عرش نبوخذ نصر ببابل (في وسط الصورة الى الاعلى مشاراً اليه بحرف B) ثم انتقل الى آسيا الصغرى في اوائل عصر فن العمارة الاغريقي هناك (الى اليسار في الجزء السفلي من القسم الاوسط) ثم اقترب من شكله الاخير في عمود وجد بالاكربوليس بأثينا احتفت فيه شكل الزنبقة تقريباً وبقيت حلقتاها الجانبيتان (الى اليمين في الجزء السفلي من القسم الاوسط) ، ثم تطوّر واتخذ شكله الاخير في العمود الايوني Ionic (الى اقصى اليمين) الذي تلاشت فيه الزنبقة وظهرت بدلها حلقتان جانبيتان فقط وهذا العمود الاخير اخذ رسمه عن معبد النصر بالاكربوليس بأثينا

بعد هذه الاعمدة البسيطة الشكل شعر المصريون بحاجتهم الى وضع تاج للعمود يزينه واتخذوا هذا التاج على شكل النباتات فظهر العمود الذي تاجه على شكل البردي والعمود الذي تاجه على

شكل اللوتس ، والعمود الذي تاجه على شكل أغصان النخيل ، وهذا الأخير هو الذي يهمنا الآن . ونرى صورته (رقم ١٦ « ا ») ، ووجه أهميته أنه انتقل بنصه وفصه الى الخارج حيث نقله (شكل ب) معماريو برجاموم في العصر الهيلاني.

وهذا المثال يرينا بوضوح أن فكرة اتخاذ أشكال زخرفية معمارية نقلاً عن النباتات والزهور اكتسبها الأغريق من الخارج ، وأن العمود الكورنثي (صورة ١٦ « جـ ») هو دون شك مقتبس بالطريقة نفسها

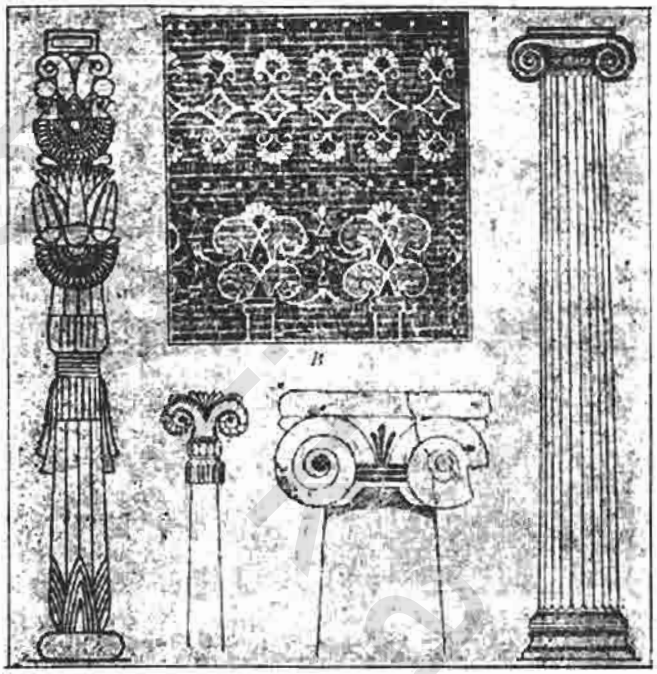

(صورة رقم ١٥)

الآن وأنا أراكم قد سأمتم ذكر الأعمدة والمقارنة بينها انتقل الى ذكر روما ، روما العظيمة الخالدة ذات التاريخ المجيد

ولكن ما لروما وفن العمارة المصري القديم ، هذا ما يتهامس به الكثيرون الآن

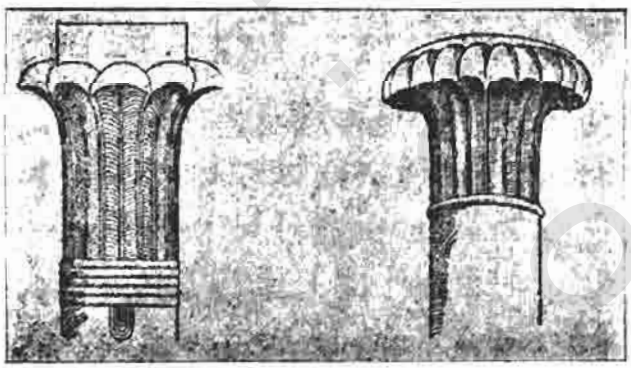

(ب) — صورة رقم ١٦ — (ا)

صورة رقم ١٦ — (جـ)

لا أنتوي ان أدخل في تفصيلات عميقة جديدة ، فليس ما ألقيه درساً في جامعة ، وانما اكتفي بأن اقول ان كثيراً من الرومان الأثرياء الذين تعوّدوا على الشرق أخذوا يبنون

مقابرهم في نفس روما على الطراز الفرعوني ، كما فعل النبيل كستوس الذي أقام لنفسه مقبرة على شكل هرم في عصر اغسطس خارج المدينة، ثم بعد ثلاثمائة سنة تقريباً اراد Aurelian بناء سور يحيط روما ليقيها غزوات الفاتحين فدخل هرم هذا النبيل ضمن ذلك السور الذي نرى جزءاً منه في الصورة على كلا جانبي الهرم (صورة رقم ١٧)

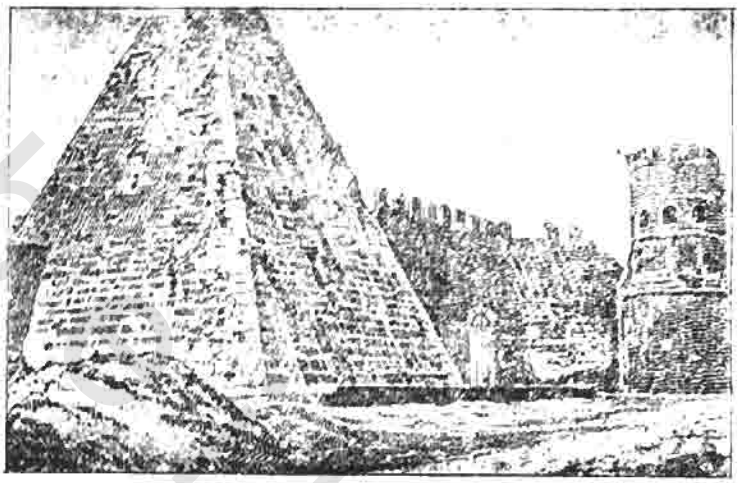

صورة رقم ١٧

الآن خطوة الى الوراء لنعود إلى الفينيقيين ، فهؤلاء القوم أخذوا عن المصريين الكثير من قواعد فن عمارتهم، فنحن نرى في الآثار الفينيقية القليلة التي نجت من الدمار منظراً مصرياً خالصاً ، فالناووس « صورة رقم ١٨ — (ا) » الذي عثر عليه المسيو رينان بالقرب من امريت التي هي مارات القديمة ، يعتبره الانسان لاول وهلة مصرياً محضاً لو كان اكتشافه على ضفاف النيل

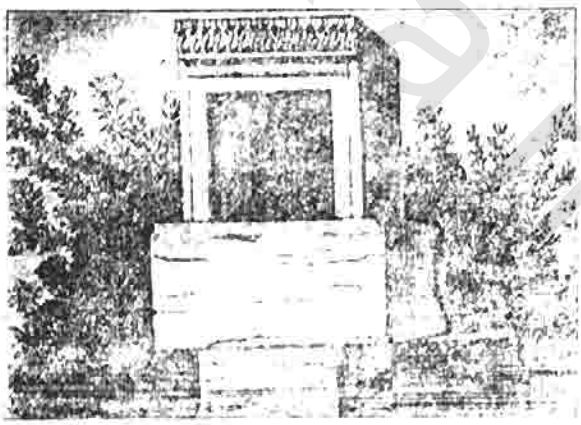

صورة رقم ١٨ — (ا)

وايضاً فان بعض الاجزاء في قصر دارا الفارسي بمدينة برسپوليس « صورة رقم ١٨ (ب) » توشك ان تكون اطلال احد المعابد المصرية ، فان جميع الابواب محلاة من اعلاها بأطناف (جمع طنف وهو افريز الحائط وما اشرف خارجاً عن البناء ويقابله في الفرنسية لفظة Corniche) تشبه الأطناف المصرية في شكلها وصلابتها ، وفي هذا دليل على انتقال الكثير من مظاهر فن العمارة المصرية الى فارس التي أعطتها بدورها لغيرها من الامم

ونختتم البحث بكلمة موجزة عن فن النحت وصناعة التماثيل في مصر وأثر ذلك الفن في الخارج

الواقع أن مثالي الاغريق تأثروا تأثراً شديداً في أول عهدهم بالتماثيل المصرية القديمة التي رأوها . والدليل على ذلك أن تماثيل الاغريق الاولى التي صنعوها من الحجر كانت ظاهرة التقليد كما يتضح ذلك من الصورة (رقم ١٩)

فهذا الشكل يرينا تمثالين ، الايمن منهما هو تمثال مصري للكاهن رع نفر (الاسرة ٥) اما الايسر فهو تمثال اغريقي . فالتمثال المصري أقدم من التمثال الآخر بما لا يقل عن ألفي سنة ، يمثل صاحبهُ واقفاً بالطريقة المتعارفة وذراعاهُ ممتدان إلى جانبيه ، وهو يقدم الرجل اليسرى . فنحن إذا قارنا التمثال الاغريقي به لوجدنا أن شكل وقفة هذا التمثال الاخير تماثل تماماً نظيرتها في التمثال المصري ، كما ان الذراعين بوجودهما إلى الجانبين يماثلان تماماً التمثال المصري ، وكيفية اطباق اليد مع ترك الابهام خارجاً هي واحدة في التمثالين

وفوق هذا كله فان التمثال الاغريقي فيه الرجل اليسرى مقدمة كالتمثال المصري تماماً ، هذا بصرف النظر عن ان التمثالين ينظران الى الامام بكيفية واحدة

الى هنا أراني قد أطلت الشرح ، لذا فاني انتهي راجياً ان اكون قد وفقت الى ابراز صورة صحيحة واضحة لأثر مصر في الامم القديمة من حيث الفن على وجه العموم